

● الفصل الثانی

پندنامة أو دستور الوزارة

مقارنة بينه والكتب المماثلة له .

الشك في نسبتہ «للنظام» وتحليل ذلك .
أقسامه وموضوعها .

obbeikandi.com

٢- بندمانه أو الوصايا:

كان ثانی المؤلفات التي نسبت إلى «النظام» هو كتاب - الوصايا^(١) - وقد وردنا كسابقه بأربعة أسماء هي: بندنامه، والنصيحة، والوصايا، ودستور الوزارة... وكان اسمه الثاني تعريياً للأول، كما كان الثالث مرادفاً له، والرابع للدلالة على موضوعه وهو ما بحثه من تعاليم وإرشادات ينبغي أن يسير بمقتضاها الوزراء وأخرى يجب أن يحذروها ليتجنبوا أضرارها ومساوئها.

وكان جامع هذه «الوصايا» ممن ينتسبون لأسرة «النظام» كما يزعم، وقد رأى من الاعتزاز والفخر أن يجمع شتاتها المتناثر في بطون الكتب وعلى أطراف الألسنة في مختلف الأمكنة وعلى مرور الأزمنة^(٢) لما كانت عليه تلك الوصايا من حكم بالغة تصلح كل واحدة منها لأن تكون في الوزارة دستوراً كاملاً وفي السياسة قانوناً شاملاً^(٣)، وكان قد جمعه خلال القرن التاسع الهجري للأمير - فخر الدولة والدين حسن - الحفيد الثامن لـ«النظام الملك»، وقد حفّزه على جمعه أن رأى الناس يقدمون تهانيمهم وهداياهم إليه، فلم يجد هدية تعدل هذه الوصايا النظامية التي خطها جدّه العظيم لأحب أولاده إليه فخر الملك^(٤).

(١) طبعت على الحجر لأول مرة في حيدر آباد سنة ١٣٠٥ هـ باسم وصايا من «نظام الملك»، وأطلق «الجامع» عليها اسم دستور الوزارة في تضاعيف مقدمته ص ٦، وكذلك عنونت لها بعض المخطوطات التي احتفظ بصور منها، وقد عربتها منظرًا الناشر الذي يشجّعنى على طبعتها في بغداد أو القاهرة أو بيروت.

(٢) الوصايا ص ٥.

(٣) المصدر السابق ص ٥.

(٤) نفس المصدر ص ٤.

المؤلفات المعاملة قبّله:

ومما يجدر بنا - ونحن نتحدث عن هذا الكتاب - أن نسلك في دراسته نفس الطريق الذي خططناه في دراسة سابقة لتتبيّن لنا قيمته، ومن هو مؤلفه، وزمن تأليفه من خلال عرضنا لمصادره، والكتب التي ألّفت على غراره، وبيان أوجه التشكيك في نسبه «للنظام» ثم تلخيص موضوعه.

لم يكن فنّ النصيحة للأبناء من متحدثات عهد - النظام - وإنما كانت وصايا الخلفاء والملوك والوزراء لأبنائهم من أروع ما توارثته الأجيال في فنون الأدب والتاريخ والسياسة والوعظ والخبرات الخاصة منذ أمد بعيد. وقد حفظت لنا كتب الفهارس والسير أسماء كثير من المدونات في هذا الصدد فضلاً عن المنثور في تضايف الموسوعات العربية كحيوان الجاحظ والعقد الفريد لابن عبد ربّه وأمثالهما.

ولعل أول ما عرف عن هذا الموضوع مدوّناً بشكل كتاب هي الفصول الخمسة الأولى التي اشتهرت باسم - بنجتترا - ثم الفصول الثلاثة في كتاب - المهابهاراتا - في اللغة السنسكريتية، والتي كانت هي الأصل أو المقدمة التي ترجمها وأضاف إليها أربعة فصول بناء على طلب الملك كسرى أنو شروان من وزيره - بُزُرُ جِمَهْرُ - ثم عربّها بعد الإضافة إليها أيضاً - ابن المقفع - باسم كليلة ودمنة - وهو كتاب في إصلاح الأخلاق وتهذيب النفوس اشتهر باسم الفيلسوف الهندي بيدبا الذي ألّفه للملك دبشليم، وأطلق عليه اسم - كرتاكه ودمنكه.. ثم عرفنا بعد ذلك وصية الإمام - على بن أبي طالب لابنه الحسن^(١).. ثم عهد - طاهر بن الحسين لابنه - عبد الله - التي سبق ذكرها. ثم العهود اليونانية لأحمد بن يوسف^(٢) وتتضمن ثلاث رسائل في النصح خلاصتها:

(١) ابن أبي الحديد - نهج البلاغة جـ ٤/٤٦، وابن جرير الطبري - حوادث سنة ٢٠٦هـ.

(٢) ابن أبي الحديد - نهج البلاغة حـ ٤/٤٦. هو أبو جعفر أحمد بن يوسف بن إبراهيم المعروف بابن الداية خدم أحمد بن طولون بمصر وكان أبوه في خدمة إبراهيم المهدي المتوفى سنة ٢٢٤هـ - أخى =

أ - عهد الملك أدریانوس لابنه عندما اضطر للتنازل عن عرشه، وفيه تعرض للحديث عن الوزير والجند والحرب والحجاب والعمال والخدم، ومجالس الحكم وحضور العلماء والمال والخراج، ومنع التعدي وذمّ القتل ولاسيما صلحاء الناس، وهي عناوين لفصول، تحدث عنها «النظام» في سياسته ووصاياه^(١).

ب - عهد أحد الوزراء عندما بلغ سن السبعين وعهد بالوزارة إلى ولده وأوصاه بأمور بدأها بمراقبة الله ثم ملاحظة الملك ومعرفة أخلاقه والتحفظ في الكلام عند مخاطبته^(٢) والإعظام في مجالس شرابه والاحتراز منه في أوقات انبساطه، والحذر من لباس ثوبه وركوب مركبه، وإذا شاورك فلا تكلمه كلام المرشد لمن استهداه ما أشكل عليه، وإذا عقب عليك في شبهة فلا تقبل رضاه إلا بعد أن تقدم حجتك، وأره أنك لا تؤثر الحياة إلا ببراءة ساحتك^(٣)، ثم ينتقل بالقارئ فيما يتشعره الوزير مع خاصة الملك وبطانته ثم ما يتشعره مع المتطلعين إلى منزلته والحاسدين له^(٤). وهي كذلك عبارات ترددت على لسان «النظام» في كتابه وبخاصة الوصايا.

ج- عهد أحد رجال الطبقة الثالثة وهو تاجر كبير إلى ابنه ينصحه كيف ينمي ثروته وما يجب عليه تجاه معارفه والمتعاملين معه.

ومن المعنيين بالملك والسياسة من نظر إلى الوزارة والملوكية أنها صناعة لها قواعدها... إلخ... وقد ذكر المترجمون لأبي الفضل بن العميد (ت ٣٦٠ هـ/ ٩٧١م) رسالة بهذا المعنى لتعلم صناعة الوزارة والملوكية.

= الرشيد وابن دايته، له كتب منها المكافأة، وحسن العقبي، ومختصر المنطق الذي ألفه للوزير على بن عيسى بن داود وزير المقتدر. توفى سنة ٣٤٠هـ (معجم الأدباء ج ٥ ص ١٩٤، والقفطي ص ٥٦).

(١) العهد اليونانية - د/ عبد الرحمن بدوي بدوي ص ١٥-٦٤.

(٢) نفس المرجع ص ٤٨.

(٣) نفس المرجع ص ٤٩.

(٤) نفس المرجع ص ٤٢-٥٤.

وهناك ما يدعى بعهد - أردشير بن بابك - كسرى فارس، الذى كتبه لابنه شارحًا له: كيف يسوس الناس ويسود عليهم وينفرد بالخيرات ومنهم . . ولاشك بأن «النظام» قد أطلع على هذه كلها، بالإضافة إلى - قابوس نامه - المعاصرة له، وبلغته، وأفاد منها ونقل عنها.

وأخيرًا - قابوسنامه - للأمير كيكائوس^(١) الذى عاصر «النظام» وبها يوصى ابنه - كيلانشاه - عندما هرم ورأى اسمه فى دائرة الراحلين، فألف هذا الكتاب فى كل فن وعلم ومهنة وقسمه إلى أربعة وأربعين بابًا تحدّث فيها عن معرفة الله وخلق الأنبياء وشكر المنعم وزيادة الطاعة وحق الوالدين والولد والصدقة، ثم الآداب الاجتماعية من قواعد الضيافة وأصول لعب الشطرنج والنرد والصيد والصولجان والحب والراحة والزواج وجمع المال وشراء الرقيق والضياع والعلوم والمهن، ثم يجمع الحديث فى أربعة أبواب هى الباب العشرون والأبواب (من ٤٠-٤٢) فى شرائط الوزارة والقيادة والملك، وفيها ينصح الوزير أن يتعلم الحساب ويتعود ملازمة الصدق والنصفة مع مولاه، وأن يُرغّب الملك فى الحق والإحسان إلى الجيش والرعيّة، لأن إثبات الملك بالجنّد وعمارة القرية بالدهقان، وامتلاك الجنّد بالمال وحصول المال بالعمال . . وتكون العمارة بالحق والعدل والإنصاف^(٢) . . «واتخذ وزيرك شيخًا إذا صرت ملكًا سواء أكنت شيخًا أم شابًا، ومكّن من أسندت الوزارة إليه، واعط العمل للجديرين به، فإن لكل عمل رجال، ولكل مقام مقال، ولا تجعل الجنّد من جنس واحد فيكون الملك

(١) هو كيكائوس بن إسكندر بن قابوس بن وشمكير من الأسرة الزيارية التى حكمت طبرستان وجرجان وتمكنت من بسط سلطانها على همدان وكيلان إلى أن استولى السلاجقة على هذه البلاد سنة ٤٣٣هـ/١٠٤١م فصاروا يحكمونها كولاة من قبلهم وكان حكم كيكائوس مؤلف الكتاب من سنة ٤٤١-٤٦٢هـ، ثم خلفه ابنه - كيلانشاه - الذى ألف الكتاب من أجله من سنة ٤٦٢-٤٧١هـ، ثم خلع ومات سنة ٤٧٠-٤٧١هـ (مقدمة قابوسنامه).

(٢) قابوسنامه ف ١٤ الأصل الفارسى.

أسيراً لهم، وادع فى كل وقت كبراء الجند إلى طعامك ونبذك وأحسن إليهم بالخلع والآمال، ولا تسلطهم على رءوس الرعايا»^(٢). فهو كتاب هدفه الإرشاد والوعظ والتعليم فى شئون الحياة الاجتماعية وليس فى السياسة كما فى وصايا «نظام الملك».

إن التشابه كبير بين - وصايا «النظام» - ونظائره من مؤلفات سبقتة أو عاصرتة، ويبدو لقارئها واضحاً حتى لنجد بعض الجمل معادة إن لم تكن بالفاظها بعد تعريبها وإلاً فبمعانيها مما يقوى دعوى الشك فى نسبة الكتاب إلى «النظام». وعلى الرغم من ذلك فإن الفروق الكثيرة التى بينها ولا سيما - قابوسنامه - لا تؤيد دعوانا بأنه قد اطلع عليه وأخذ منه، إذ من الجائز أن يكون الاثنان قد أخذنا عن مصدر آخر، وبخاصة بعد أن عرفنا بأن هناك كتباً فى الموضوع مثل كتاب العهود اليونانية وغيره، وأنها ربما كانت منتشرة فى أوساط المثقفين ولعلمهم استعانوا بها بمقدار الحاجة إليها.

يضاف إلى ذلك القول: بأن الكتاب جُمع بعد عصر «النظام» بأربعة قرون، وأن جامعه قد استخرج مواده من بطون الكتب واعتمد فى قسمها الآخر على السماع، وأن المصادر التى رجع إليها مؤلف الكتاب والتى ذكر منها: دستور الوزارة لمحمد ناصحى^(٣)، وتاريخ مدرسى النظامية لأبى حنيفة البصرى^(٤)، ومتخب فضلى الهروى^(٥)، من الكتب الضائعة التى لا نعرف عن حقيقتها شيئاً، ثم من هو فخر الدنيا والدين ومن هو جامع الوصايا؟.. كل هذا مما يرجح ميل القائلين بالشك فى نسبة الكتاب إلى - نظام الملك -.

(٢) المصدر السابق ف ٤٢.

(٣) الوصايا ص ٥.

(٤) الوصايا ص ٦.

(٥) الوصايا ص ٩.

على أن عام تأليف الكتاب أو تثبيت أصوله على الأقل موضع ريب أيضاً، إذ الشائع عند الكثيرين أنه قد وضعه في أخريات أيامه بناء على الأحداث التي سجلها فيه واستناداً على زعم جامع الوصايا في مقدمته^(١). . . وفوق ذلك فهناك نص ورد على لسان «النظام» وهو يتحدث لابنه عن خيانة صاحبه - الحسن بن الصباح - وكيف أخرجته أمام السلطان بإمكانه عمل ميزانية الدولة في عشر المدة التي طلبها «النظام»، ثم قدمها في الوقت المعين ولكنه أخفق في النهاية، فلم يجد طريقاً يدارى به فشله سوى السفر. . . إلى أن قال: «وكان هذا اليوم راجحاً على ثلاثين سنة قضيتها في الوزارة: فرزند غرض أزاين تقرير آنتست كه بيك روزه ميعاد تسليم دفتر وميقات عرض آن برسى ساله وزارة راجح بود».

فإذا صحّت نسبة هذه القولة «للنظام» وهي في الأغلب صحيحة، فإنه من غير شك يحدد الوقت الذي وضع فيه أصول كتابه على الأقل، إذ المعروف لدى المؤرخين أنه استوزر عند اعتلاء السلطان «ألب أرسلان» العرش سنة ٤٥٥هـ، ولئن رجعنا إلى السنوات التي اشتغل فيها مع الأمير - ألب أرسلان - قبل سلطته، فلا بد أن يكون لهاتين الملاحظتين أثرهما في تحديد فترة تأليفها ما بين ٤٨٠-٤٨٥هـ وهو ما يجمع عليه المؤرخون تقريباً.

غير أن هناك نصاً ثانياً في الكتاب يعود بنا إلى عدة سنوات قبل هذا التاريخ، فقد ذكر وهو ينصح ولده ويشرح له مخاطر الوزارة: في قضية عودة السلطان - ملكشاه - من قتال «شمس الملك خاقان» وتعقب أثره إلى تركستان - ومكوته في الري في فصل الشتاء لتحشيد الجيوش والزحف على الشام في الربيع إلى أن يقول: «ومن ذلك التاريخ وحتى يومنا هذا مضت سبع سنين والسلطان محمد بن ملكشاه يريد الاستيلاء على خراج بسطام لمجرد كلمة والده السابقة قبيل وفاة ابنه (ونا امروز آن تاريخ هفت سال آست سلطان محمد

١ - الوصايا - المقدمة .

ميخواهد»^(١). . ومن الثابت فى التاريخ أن مقاتلة الشاه للخاقان وعفوه عنه بشفاعة - تكين سلطان - واعتذاره له كانت عام (٤٦٧هـ) كما ذكر ابن أبى الفوارس الحينى^(٢). وعليه يكون حوالى سنة ٤٧٤هـ كان قد وضع أسس كتابه أو طلب حضور أكبر أبنائه فخر الملك ونصح به بتلك الوصايا التى جمعت ونظمت مع إضافات وحذف فيما بعد. وهذه هى المرة الثانية التى سار فيها السلطان ملكشاه لمحاربة - شمس الملك - إذ المرة الأولى سنة ٤٦٥هـ والثانية سنة ٤٨١هـ، وكلاهما بعيدة الاحتمال أنها المقصودة من حديث «النظام»^(٣).

....والذى يميل بنا فى ضوء ما أبتأه أن الضجر من منصب الوزارة أخذ يتزايد فى نفس الوزير الوالد على مرور الأعوام، وتفاقم أسباب الخلاف بينه وبين السلطان وأنه منذ بدأت السعيات ضده فلا يجد لصدّها أو تخفيفها حيلة، ولا فى مقابلة سلطانه أثراً حسناً. كان حينئذ لا يريد لابنه هذا المركز الخطير المحفوف بالدسائس والمناوئين، وأخذ يفكر فى بذل النصح له فى كل فرصة مواتية، وفى حالتى بعده عن الوزارة أو قبولها، وأخذت المعلومات الخاصة والعامّة تتجمع فى ذهنه وبعث إليه بعضها بشكل رسائل، ومنها ما ضاع وعفت عليه الأيام، ومنها ما بقى كما سنشير إليه فيما بعد إلى قبيل وفاته.

وغير بعيد أن تناقلت الألسنة قسماً منها كما نقلت أقلام الخطّاطين قسمها الآخر وكان من هؤلاء وأولئك من يعنى بحفظها وحكايتها لأنه ممن يمت إلى صاحبها «النظام» بنسب^(٤). . إلى أن حصلت الحاجة الملحة إلى جمعها وتنظيمها وتقديمها للأمير - حسن - وربما جاز لنا أن نذهب إلى أبعد من ذلك فنميل إلى أن الوصايا كانت مجموعة بين دفتى كتاب صغير ينقصه بعض

(١) الوصايا ص ١٨ فى الأصل .

(٢) أخبار الدولة السلجوقية - حوادث سنة ٤٦٧هـ .

(٣) مرآة الزمان - حوادث سنة ٤٦٥ ، ٤٨١هـ .

(٤) الوصايا . والصواب «الملك تكش» وهو شهاب الدولة تكش أخو السلطان ملكشاه الذى فوّض إليه إمارة خراسان .

التبويب والترتيب إلى أن هيأت الظروف - لجامعه - فقسّمه إلى مقدمة وفصلين وأضاف إليه من مقروءاته ومجموعاته ما ربط بين فصوله وترجم به «للنظام» بإيجاز، وإلاّ لما ذكر الكتاب ونقل عنه من المؤلفين من توفى قبل القرن التاسع الهجري^(١).

والشيء الأخير الذي يدفعنا إلى القول بصواب نسبة الكتاب إلى «النظام» أسلوبه وموضوعه، فإنه من حيث الأسلوب كان كسابقه مجموعة من الأحاديث المتعة النافعة بقدر ما هي مؤثرة تنم عن إخلاص الوالد وعطفه وحرصه على مصلحة ولده ومنفعته وكان في حديثه مسترسلاً دون تكلف متسلاً من غير توقف، بل يثبت لديك وأنت تسمع إليه أنه حديث أب مجرب شفيق، يدلى بخلاصة خبراته وعصارة عواطفه من غير خشية رقيب، فهو يصارحه في أحداث كانت من قبل أسراراً ويكشف له الحجب عن نفوس المتنفذين والحاشية وأطماعهم وبأسمائهم مما لا يمكن أن يصدر عن غير «النظام» لغير ولده الذي يحبه ويطمئن لإخلاصه^(٢).

وزيادة على ذلك فالوصايا تشبه في أسلوبها كتاب «السياسة» فإن تقديم الفكرة ثم الاستشهاد بالحكايات والتمثيل بقصص موجزة أو مطولة تنتهي ببيان القصد عن إيرادها كما في سياستنامه وتكرار وتشابه بعض العبارات مثل: «وغايتي من إيرادها هو كذا...»^(٣) ثم الاستطراد إلى أشياء أخرى والعودة إلى الموضوع فقد يروى قصصاً من التاريخ كما يروى حكايات حدثت له وقد يأتي بالأساطير من القصص ومن هذه ما لا يصدقه العقل ولا يقبله المنطق، ولئن كانت من المصادفات فهي من أغربها وإن كانت من أقدار الغيب فإنها من أعاجيبها مثل ما فعل في كتابه - السياسة - وهي في وصاياه أكثر عدداً وأمعن خيالاً، وأشد غرابة، فمن ذلك قصص فتحه قلعة - إصطخر - بفارس وغيض

(١) الوصايا، وأغا بزرك في مخطوطته من «الذريعة في تصانيف الشيعة».

(٢) الوصايا ص ٢٧-٣٠.

(٣) الوصايا ص ٢٧.

مياه الآبار فيها^(١) وكيفية استيلائه على قلعة - مريم نشين - والزلازل الذي أسقط أسوارها^(٢) ثم حكاية التقاط الطائر لحمايل إحدى جوارى الأمير إسماعيل الساماني. وما أن تعقبه الفرسان حتى رماها في بئر، وما أن نزلوا فيها حتى وجدوا بعض الصناديق من خزائن «عمرو بن الليث الصفار» التي هربها - سام - وأخفاها في حدود هرات. كل هذا يحكيه في سبيل إثبات أن الأمر بيد الله يؤتية من يشاء، وما يصيب الإنسان من توفيق فمن الله يمنحه لمن يريد، وإن نقض العهد شين والوفاء به والبقاء عليه أوفر نفعاً وأكثر خيراً حتى ليحسّ القارئ للكاتبين بأن ثانيهما متمّ للأول بشكل عام. وفي موضوع الوزارة على الأخص فهو يحدثنا فيه عن خطورة هذا المنصب وشرائط القائمين به وواجباتهم وصلاتهم بالسلطان وحاشيته والناس مما ينقص سياستنامه.

وقد اختار «النظام» لعرضه الأحداث أسلوباً خاصاً جعل منه نموذجاً لأدب الحديث والحوار بين الوزير والسلطان فكان كتابه «الوصايا» وكذلك «السياسة» في بعض فصوله قواعد في السياسة العملية كما يسمونها، إذ تعرضت لأصول فن الدبلوماسية - الإتكييت - ينبغي أن يسير عليها الحكام فيما بينهم وعلى اختلاف درجاتهم، ولم يفته تطبيقها في محادثته للسلطان ومحاورته لابنه، إذ إن لطريقة العرض عند «النظام» أهمية كبرى فإذا كانت حسنة كانت النتيجة خيراً وبخاصة في أعمال السلطان، وبذلك يمكن للنديم أن يتدخل في كل شيء وإن لم يكن واجباً عليه فإنه يتحبّب في كل من يحضر مجلس السلطان أن يتعلم الحساب والتاريخ ويتخذ أسلوب التلويح والتلميح في عرضه للقضايا والمهمات بدلاً من التصريح والمجابهة في إبداء المشكلات^(٤).

أما من حيث موضوعه فهو كذلك يشبهه من ناحية ويكمل سلفه من ناحية

(١) الوصايا ص ٣٨.

(٢) الوصايا ص ٤١.

(٣) الوصايا ص ٤٥.

(٤) الوصايا.

أخرى، وإن كان ذلك في السياسة، وهذا في الوصايا إلا أننا إذا أطلعنا على موضوعه وجدناه في الوصايا السياسية إن صحّ هذا التعبير. . وهذا وذاك ما يدعوننا إلى تلخيصه:

أقسامه وموضوعه :

لقد قسم كتاب «الوصايا» إلى مقدمة وفصلين وقد ضمنّ المقدمة موجز سيرة «النظام» وقارن بينه وبين سائر الوزراء وفضّله عليهم ولاسيما الفرس منهم. وذلك بالرجوع إلى ما كتب السلف في أحواله وإلى إعداده العلمى والخلقى فى مختلف الفنون وتباين الظروف حتى وضعه - أبو حنيفة البصرى - فى كتابه «تاريخ مدرسى النظامية» فى عداد علمائها بعد الغزالي والشيرازى^(١). كما ضمنّ الفصل الأول تحريض ولده على ترك الوزارة وبيان مخاطرها. . والثانى آداب الوزارة وشرائطها إذا لم يكن بدُّ من الاشتغال بها^(٢).

والذى يبدو أن جامع شتات هذه الرسالة والمؤلف بين أجزاءها كان - كما تدلّ مقدمته - من ذوى الثقافات الاجتماعية والدينية، ومن أصحاب الفكر المنطقى إذ نراه يعرض آراءه على أساس البرهان المؤلف من مقدمة ونتيجة، فهو فى صدد إثبات الضرورة لإيجاد الحكومة والقانون. . مثلاً يقول: «إن الكمال الإنسانى لا يكون إلاّ بالمعرفة، وهذه تتوقف على الأمن والاطمئنان، وهما يحتاجان إلى انتظام أمر المعيشة، وهو يتعلق بمشاركة أفراد النوع وتعاونهم»^(٣).

ثم يفصل فكرة التعاون ويبين أنه لا يتم إلاّ بالعدل، ويشرح كيف أن العدل لا يتحقق إلاّ بتطبيق بنود وضعها ذوى الطبائع السليمة وهى الدستور، وهذه هى الشريعة بجوهرها النقى الخالص. . ثم يوضح أن الشريعة بحاجة إلى حامٍ يحميها وناصرٍ يدافع عنها، وهذا هو السلطان الذى تُحترم الشريعة بهيبته وتثبت بقوته وبأسه.

(١) الوصايا ص ٦.

(٢) الوصايا ص ٥.

(٣) الوصايا ص ٣.

وحيثما ينتقل لإثبات أهمية منصب الوزير بالنسبة إلى السلطان يقول: «إن لكل شيء أساساً يعتمد عليه وأساس اللطنة وعمادها الوزارة وعليها ومنها يعتمد الإنسان الكمال الذي به سعادته». . وهكذا يصل بين خاتمة ما انتهى إليه ونهاية ما بدأ به من حديث حول - الكمال - الذي ينشده الإنسان مادامت الحياة. . وهي فكرة استمدّها من المقدمة التي مهّد بها «النظام» لكتابه «السياسة»، ثم أشار إليها في عدة مواضع منه ومن «وصايا».

يبدأ «النظام» وصايا لابنه - فخر الملك - بتحمّسه في دنو أجله وقرب ساعة ارتحاله ومقدار حبه له، وإنّ واجب المروءة نحوه فيما وراء محبة الأبوة والبنوة يدفعه لأن يرشده إلى ما انكشف له من: «عند العالم الربانى والملهم الرحمانى»^(١) يرشده وفي نفسه شك من قبول ابنه لنصائحه لأنه لما يزل شاباً، وأنه حينما كان فى مثل سنّه لم يرعوى لنصيحة مثير ولم يصدق - فى مثل هذا الموضوع - قولة خبير. . ومع ذلك فإن عطفه يدفعه لأن ينصحه بترك الوزارة إن دعى إليها بعد موته، وأن يتمك بأذيال القناعة، غير آبه ولا منخدع بمغريات الدنيا، لأن لذاتها فى الأولى لاتقاس بحراتها فى الأخرى^(٢).

ثم يقول له: «واعلم بأن الوزارة منصب خطر، وإن بدا لك سلطنة ثانية، وإن تفصيل إحدى مخاطرها يحتاج إلى سفر كبير، وإن أولها إصدار الأحكام المتباينة فى كل يوم، وفى كل موضوع، ولكل شخص، وإن الحكم الإلهى انما هو فى قوله: ﴿وَإِذَا حَكَّمْتُمُ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾^(٣).

ثم استشهد بدولة المائة سنة^(٤) وكيف تناقضت أحكامها وعجزت عن تطبيق أوامرها وفق المناهج الحقّة، مع أن هذا ممكن عقلاً بعد التأييد الإلهى، وإن كان صعباً حتى ليكاد يكون مستحيلاً من غير ذلك.

(١) الوصايا ص ١١ .

(٢) الوصايا ص ١١ ، وهو يقصد بها إمارة البويهيين .

(٣) سورة النساء - من الآية ٥٨ .

(٤) الوصايا ص ١١ ، وهو يقصد بها إمارة البويهيين .

ثم يسترسل فى تفاصيل مخاطر الوزارة من ناحية مطابقة الأوامر لأحكام الله وكيف كان يساوره الخوف فى هذه الحالة، حتى مرض مرة حينما أصدر أمراً بإحالة بستان ورثها قاصرون إلى الديوان، فشهد حلمًا مفزعًا لكثرة وساوسه وتفكيره، ولمّا شفى بعد أيام تصدق على الفقراء وعودّ الأطفال وشكا حاله للشيخ - أبى إسحاق الشيرازى - وطلب إليه أن يخبره فى ذلك، فكان جواب الشيخ له: «إن لم تكن هذه المخاطرة لكان الوزير من الأولياء، وكانت الوزارة مرتبة المقربين والصديقين والأصفياء».

ومشكلة يتلقاها الوزير فيذهل لها بعد مشكلة الحكم والحق، ويحير فى حلّها وهى مشكلة رضا السلطان، فإنه مهما بذل من جهد وإخلاص وتفكير يعجز عن بذله الآخرون، بحيث لم يستطع السلطان اتهامه بالتقصير نحوه وإشاعة الرحمة فى الرعيّة والعجز عن تدبير الأمور، فإنه يحس بشعوره الصادق: إن مزاج السلطان لا يخلو من جانبه بكدر فيلجأ إلى رفيق صباه وصديق شيخوخته - إمام الحرمين الجوينى فيسط له معضلته هذه ويجيبه الإمام: «أنه من العجب العجاب أنك لا تعلم منزلة المال والملك فى نفوس الناس وبخاصة السلاطين والملوك وقد جعلتها تحت تصرفك».

ثم يبين له شكوك الملوك وتزايدها بتوالى الأيام إلى أن تصبح يقينًا، لأن مطالبهم تختلف باختلاف أعمالهم، فعلى الوزير ألا يكدرّ خواطر الأعيان والأشراف فيشكون الى السلطان وأن يكون موقفه فى مجلس السلطان موقف البصير الحذر فلا يذكر شيئًا إلاّ إيماءً وتلويحًا، ولا يشكو أحدًا إلاّ بإشارة عابرة، وإذا ظهر من أحد ملازميه ما يسىء إليه أو يزرى بسمعة الدولة وشئون المملكة أعلنه وعاقبه، وإذا رأى السلطان شدة أخفاها وأسرّه. وفى القناعة من هذه الشكوك راحتته، وإذا قرنت بطاعة الله وعبوديته كانت هى النعمة.. ثم يذكر قصة الفضل بن الربيع وزير الرشيد، وكيف طلب أن يكون أميرًا للحج وصاحب المحمل، وبعد عودته كيف التزم العزلة وفرغ نفسه للعبادة وفاز براحة البال حتى زاره الرشيد فى زاويته، وقال له: «إن كنت قبل هذا فى خدمتى

فاليوم. دونه، وفي الله أخى». . فأجابه الربيع: «لو كنت ملازماً بلاطك طول عمري ما وصلت إلى هذه الرتبة فعليك بالقناعة (يابنى) ولا تغرنك من هذا المنصب حللوته فى البداية فإن مرارته فى النهاية».

ثم ينتقل بابنه إلى مخاطرة أخرى هى غضب أولاد السلاطين واستدراك عواقبه^(١) ويستشهد لذلك بحكاية السلطان ملكشاه عند عودته من قتال - شمس الملك خاقان - وملاحقته من تبريز إلى تركستان ومكوته فى الرى لجمع عساكره والتوجه إلى فتح الشام فى الربيع فبلغه الخبر بميلاد حفيده - بايزيد بن محمد - فسرّ لذلك وخصّص له خراج بسطام إلا أنه مات بعد يومين وبقي أبوه يستولى على خراجها سبع سنوات دون أن يجرأ أحد على ذكر هذا أمام السلطان. واستمر «النظام» يدفع خراج بسطام لولد السلطان من أملاكه الخاصة خشية اتهام السلطان له بالإهمال أو بسوء الإدارة وخوفاً من غضب الأمير إذا انقطع عنه المال. ومع ذلك لم يرض لأن فى رضا أبناء الملوك كساد الحال وفساد المال، وإن أهمل أو تساهل فى رغباتهم عن علم وقصد اتهم بالتقصير والخيانة والجهل^(٢).

وينتقل بالحديث إلى تفصيل مخاطر الولاية وكبار رجال الدولة الذين لا بد من مخالطتهم ولا يمكن معاداتهم، ولكن معاشرتهم محفوفة بالأخطار ومناوأتهم تجلب الأضرار، والأنكى من سخط هؤلاء غضب السلطان لأنه لا يرضى بصداقة الوزير للأعيان ويعدها من مظان السوء ودلائل الاتهام، ثم يورد مثلاً على ذلك بقصة زيارته لألتون تاش وكيف نقلتها السنة السوء فغيرت من نوايا السلطان نحوه^(٣) مع أن ألتون تاش - من التركمان الجهلاء الذين اختلف معهم فى أمور البلاط كثيراً لدرجة الاستقالة، ثم يردفه بقصة أبى العباس

(١) الوصايا ص ١٧ .

(٢) الوصايا ص ١٨ .

(٣) الوصايا ص ٢١ .

الإسفرائينى وزير السلطان محمود ونهايته المؤلمة بسبب عدائه للمحاجب الأمير على الخيشاوند - ليستدل بها على النتائج السيئة من معاداة أصحاب القدرة والنفوذ^(١).

ثم يلفت نظر ولده إلى طبقة الكتّاب وأرباب الأعمال والسفراء وأمناء السر ويشبههم بالنسبة للوزير كالجيش بالنسبة للسلطان لا تستقيم أموره دون تعاون هذه الفئة ومساندتها، وقد تكون حياته مهددة بالخطر إن جفاهم، فعليه أن يكثر الهدايا، وأن يقدم من يستحق التقديم.

ثم يعنى عليه تقليد الأعمال إلى الأقارب والأتباع، فإن هذا عين الخطأ لأنه قد ولّى إخوته الأقاليم لكفاءتهم وأمانتهم.. فقيل: إن الحاجة قد قسم الأمصار بين أولاده، وأول من استغل ذلك حرم السلطان بسبب تفضيله «بركيارق» لرشده ونضوج عقله على ابنها - محمود - فأثر كلامها فى حفيظة السلطان ودخيلة نفسه^(٢). . . وعليه فإن تفويض الأمور إلى الأقرباء يكون مدعاة للاتهام ودليلاً على الخيانة، وإلى الغرباء يكون وسيلة للتآمر وقلب الحكم كما رأيت من «ابن الصبّاح» الذى لا أزال أتحمّل منه ماتعلم، ولا أعلم ما سيئول إليه الأمر فيما بعد. وهنا يفصل حكاية اتصاله بالخيتام وابن الصبّاح فى مجلس الإمام - موفق النيسابورى - وقصة العهد بينهم ومقابلته لكلّ منهما مراعيّاً عهد الصبا ثم خيانة الصبّاح وخروجه من البلاط^(٣).

وفى الفصل الثانى من الوصايا يتحدث «النظام» عن آداب الوزارة كمن وثق بأن ابنه راغب فيها مغرور بمظاهرها ومفاتها غير آبه لمخاطرها ومآسيها.. لذلك يرى لزماً عليه أن يرشده إلى واجبات الوزير وصفاته ثم يفصلها له بنقاط أربع:

(١) الوصايا ص ٢٤-٢٦.

(٢) الوصايا ص ٢٧-٣٤.

(٣) الوصايا ص ٢٧، ٢٨.

واجبات الوزير وصفاته :

النقطة الأولى: رعاية جانب الله:

وهذه تكون باليقين الراسخ والابتعاد عن تمويهات المبتدعة، وتقولات الفرق الضالة وأداء الفرائض وإدامة الطاعات والعبادات والتزام محاسن الأخلاق، واجتناب ذمائم العادات واعتقاد أن التوفيق الحسنة إنما هي بفضل الله تعالى، والاعتراف بذلك من كمال الإيمان. ثم يورد حكاية الوفود لإبداء فروض الولاء للمخليفة ومنحه خلعة مطرزة باسم - الوزير العادل العالم «نظام الملك» رضى أمير المؤمنين - وسير الناس على أرجلهم وبقي هو راكباً، ولم يفكر أو يتحير، ثم رؤياه ثلاثة أيام تتجسم له الصفات بأشخاص ذوى رائحة كريهة، والحسنة بأوجه منورة، وفي انتساب التوفيق فى كل شيء إلى الله حيث يحكى لنا قصة فتحه لقلعة - إصطخر - وسقوط قلعة - مريم نشين (١).

النقطة الثانية: رعاية جانب السلطان:

وفيه يتحدث عن لزوم اطاعته كما يطيع الله، ويورد قصة ابن أعلم وتلميذه - ناصر التبانى (٢) - ثم طلب رضاه، وإذا حصل ما يחדش عاطفته فعليه بتدبير ملكى وآخر مالى، وفى الأول: يرعى جانب الأصدقاء ويحذر جانب الأعداء، وعدم نقض العهود، وفى الثانى: يفكر فى حل الأزمات المالية للخزينة، ويستشهد لذلك بقصة إسماعيل السامانى وإعطائه الأمان لأهالى هرات. . والثانية إرساله مائة من متعهدى الممالك بإرسال ألف دينار لتسديد نقص خزينة - كيو - ثم العمل على دعاء الخير له وهذا يكون بالعدل والإحسان، ثم الذكر الجميل له وهذا يكون بإظهار حسن سيرته وإعلانه عدالته. وبعد تفصيل طويل يوصى بالأى يعتمد على تقرب السلطان وتبسطه معه وعنايته، وإنما يجب زيادة

(١) الوصايا ص ٤٠-٤١.

(٢) نسبة إلى بيع التين أو التبن، وربما كانت النسبة إلى درب التبانة وهى المجرة نظراً لاشتغاله بالرصد وعلم النجوم.

الحذر منه كلما زادت عنايته، وأن يعرف ميوله لإشباعها. أمّا إذا رغب السلطان شيئاً مخالفاً للمصلحة العامة ومنافياً لطريق العدل فيجب ألاّ يمنعه ويدفعه صراحة، وإنما بضرب الأمثال والقصص التي تعرض الأضرار والمفاسد لتكون بذلك محترماً لمقام الملك وموافقاً لمزاجه، وفي هذا تتم المصلحة العامة ويلقى على مسامح السلطان قصتين من أجل ذلك^(١).

وعلى ابنه لمعرفة ذلك أن يتعلم فنوناً منها الحساب والتاريخ لأن حوادثه تتكرر لأننا نستفيد منها أشياء كثيرة.. ثم يحكى قصة - منصور الساماني - وكيف وقع في مكيدة - ألبتكين - ومنها نستفيد أن تتبّع العدو إلى وادى لا نعرف عنه شيئاً خطأ كبير، ثم يحكى له قصة المناقشة بين قاضى مرو، والإمام جمال الدين خجندی من علماء ما وراء النهر حول ألفاظ الخالق والبارئ والمصور، وهل تتحدّ في معناها أم لا. وأورد لهم مثلاً فى التاريخ عن «المظلة» وكيفية تطور صنعها فى عهد - بهمن - فكان بذلك موجدتها، وأردشير مصورها، وبوشن خالقها^(٢).

النقطة الثالثة: رعاية جانب المقربين:

وفى هذا الموطن يؤكد على ابنه ضرورة رعايتهم بل يجب أن تكون أقوى من رعاية الملك لأن أكثر المفاسد تأتي عن طريقهم، ثم يصنّفهم إلى أربع طبقات حسب أهميتهم: وأولها خطورة: هى الزوجات ولاسيما المقربات. وثانيها: الأبناء وخاصة الكبار. وثالثها: الأمراء وعلى الخصوص العظام، ورابعها سائر الملازمين.

وأول شرائط رضا هؤلاء جميعاً وهى كثيرة - ثبات الوزير على الصدق - وملازمة الصواب بحيث لا ينال منه مخلوق، وحينما لا يكون الشخص مخلصاً مستقيماً يكون الصديق كاذباً حين يثنى عليه، والعدو صادقاً حين يذمه. أمّا إذا كان صادقاً أميناً فإن مجال الامتداح للأصحاب واسعاً، وطريق الانتقاص للأعداء ضيقاً، وينتقل إلى تفصيل ما يجب نحو كل طبقة:

(١) الوصايا ص ٤٢-٥٤ (فارسى).

(٢) الوصايا ص ٥٣، ٥٤.

أ - الحریم: فیذكر أن استشارتهن لم تكن من تقالید الفرس، وإنما هی من عوائد التركمان أخذها السلاطین عن ملوك تركستان، لأنهم تربوا فی الأصل علی أیدیهم وجروا علی خطتهم، لذا كان ضروريًا الاحتفاء بهن من غیر الاختلاط بحاشيتهن، كما يجب الاحتراز من التردد علی واحدة منهن دون الأخرى وإخفاء رعايته لإحداهن حتى تتصور الواحدة أنه يختصها بعواطفه دون غيرها. وهذه القاعدة تصدق علی أغلب الناس، وعليه يجب السعى لاكتساب ودّهن حتى یبدأن بالحماية ویبادلن الوزير الرعاية. . ویورد لذلك حکایة فرار الأمير - ألتون تاش - من وجه - جمیلة القندهارية - وانزوائه فی إمارة خوارزم، لأنه عجز عن مداراتها لإرضاء السلطان - محمود - حتى أنه ما عقد أمرًا إلاّ حلّته، وما حلّ مشكلًا إلاّ عقدته، وما عقدت شيئًا إلاّ استعصى علیه حلّه، وما حلّت موضوعًا إلاّ عجز عن عقده^(١). ومن هنا ظهر مقدار الضرر فی مخالفتهم. . أمّا نفع مجاراتهن فلا نهاية له لأن حماية أى شخص فی البلاط تكون بمقدار أثره فی مزاج السلطان وليس من یباريهن بهذا الخصوص. .

وعليه فحماية الحریم حرز حریز، وحصن حصین^(٢). ثم یورد حکایة ثانية للغرض نفسه خلاصتها: أن السلطان - محمود - لم یکن علی وفاق مع وزيره الخواجة - أحمد حسن المیندی - فی أواخر أيامه، وكان ممن یتربص ذلك لیفید منه الخواجة - حسنک میکائیل - لیحل محلّه الأمير التونتاش السابق الذکر - وقد أشاعا عنه تقولات كثيرة، ولكن لم تصبه بضرر لأنه كان فی حماية زوجة السلطان الجديدة - مهد جکل - ابنة ملك تركستان والجارية - جمیلة القندهارية - وقد حاولا مرة اتهام الوزير بالانحجار، وقبضا علی التاجر وقدماه للسلطان - محمود - ولكنهما عادا بالفشل بفضل الحيلة التي دبرتها زوجة السلطان وجاريتها ودعواها أن البضاعة لها وهی هدايا لأقربائها من الرجال والنساء حتى غضب السلطان علی المخبرین وأراد قتلهم لولا توسطها^(٣).

(١، ٢، ٣) الوصايا ص ٥٦، ٥٧.

ب - أبناء الملوك: ويقسمهم إلى صغار وكبار، ويجب عند «النظام» رعايتهم جميعاً وبخاصة الصغار لأن للعناية بهم نفعٌ خاص، إذ يحتلون مكانة عظيمة في نفوس آبائهم، ولأن الملوك يحملون ذلك على شدة الإخلاص لهم، وليس على محمل الخوف أو الرجاء.. أما الكبار فيجب عدم التقصير في جلب رضاهم وكسب ميولهم والاكتفاء بقليل من اللقاء بهم في مجلس السلطان وجلب ما يرغبون فيه لإدخال السرور إلى نفوسهم لأن الضرر من سخطهم والنفع في رضاهم حاصلان في أكثر الدول، ويأتى بشاهد على ذلك حكاية الخواجة - أحمد حسن - وحسك ميكائيل - بعد وفاة السلطان - محمود - واحتدام الخلاف بينه وبين ورثيه - محمد ومسعود واستيلاء الثانى على الحكم وقضائه على الوزير حسك واستيزاره أحمد حسن - بفضل علاقته الحسنة معه من قبل^(١).

ج - القواد والأمراء: ومهما تكن منزلة الوزير وقدرته وسطوته في الدولة فانه لا يتغنى في بسط نفوذه عن رضا الأمراء وتأييدهم له. وهكذا كان الحال في العصر الساسانى حتى عهد - يزدجرد - وكذلك في عصر الدولة الغزنوية، فقد تضعض مركز الخواجة - أحمد حسن - على عظمته بسبب معاداته للأمراء وسوء تصرفه مع نوابهم، لذلك وجب إعزازهم حسب درجاتهم^(٢).

ثم يفصل لابنه - وزير المستقبل - ما يجب عليه نحوهم من زيارات في المناسبات، وتسامح معهم في المخالفات، وأن يتلطف مع كل واحد منهم إذا قصر ويزيد النفع إليهم إذا قلّ وعسر، وألا يحاورهم إلى درجة المجادلة.. وأن يمنع الأذى عنهم عند وقوع النازلة.. ثم يورد قصة في ذم الشماتة وسوء عقباها جرت لدبشليم الحكيم المرتاض الذى عينه السلطان محمود حاكماً لسومنات فأراد الثأر لنفسه والانتقام من أحد أقربائه فلقى سوء العاقبة نتيجة لسوء نيته وفساد طويته^(٣).

(١) الوصايا ص ٦١، ٦٢.

(٢) الوصايا ص ٦٤.

د- سائر الملازمين: وقد صنفهم إلى ثلاث طوائف:

● الندماء: وهم لا اعتبار لهم بنظر «النظام» وإنما يجب أن يرعى جانبهم وأن يتجنب إيذاءهم وتعكير خاطرهم من أجل خاطر السلطان، لأن دخولهم وخروجهم وتحديثهم معه يعتبر رتبة عالية، ولاحتمال صلتهم بأحد المغرضين. وإيقاف ضررهم المتوهم واجب عقلاً قبل استفحاله، لأنه كالشرر فإذا أهمل أصبح ناراً شديدة يصعب إطفائها، ويمثل لذلك بحكاية - الفضل بن الربيع - لأبي الحسن حينما رأى في المنام شخصاً فصارعه ورماه إلى الأرض فلماً جاءه للمرة الثانية لم يهتم به فغلبه وكاد أن يهلكه حتى استيقظ من نومه ولمّا سأل عن تفسيره: ما هو؟.. قيل: هي ذنوبك، وكذلك العدو إن لم تهتم به تعذر دفعه^(١).

● أرباب السيف: وأثرهم في إصلاح الوزارة وإفسادها قليل نسبياً كالندمان والحصول على رضاهم سهل لا يحتاج إلى اهتمام^(٢)، لأن الجيش - بنظر النظام - يجب أن يكون بمنأى عن السياسة وليس له حق التدخل فيها ليتفرغ قواده لإعداد الجنود للفتح في الخارج وليستعد الجنود لحفظ الأمن والدفاع عن الوطن في الداخل والخارج.

● أصحاب القلم: وهم الطائفة التي تحتاج إلى لطف التدبير بالنسبة لمنصب الوزارة كالجيش بالنسبة إلى عرش السلطان، فكما لا يتقرر هذا إلاً بالجنود، فكذلك لا يسند ذلك إلاً بأرباب الأقلام، ثم يورد حكاية وصية - عبد الحميد بن أحمد - لابنه في ضرورة الموازنة بين مهام الدولة ودرجة كفاءة الموظفين بحيث يفوض إلى كل واحد من الأعمال ما يتناسب وقدرته، وعدم جواز تركهم بلا عمل، لأن تجمعهم على أبواب السلطان يسبب مفسد كثيرة واضطرابات خطيرة^(٣). ثم يمثل أيضاً بقصة - أنو شروان - حينما سأل وزيره - بزرجمهر - مندهشاً متحيراً كيف كانت تداع أسرار البلاط ولا يعلمها سواهما؟ فأجابته:

(١) الوصايا ص ٤٩.

(٢) الوصايا.

(٣) الوصايا ص ٧٠.

حينما ترسلون إلى لتداول في أمور المملكة كان هؤلاء الكتّاب يتزاحمون على أبوابكم، يقبلون وجوه الرأى عن أسباب ذلك إلى أن يصلوا الى السبب بتحليلاتهم ثم ينشرونه لذلك أرى أن يعهد إلى كل منهم بعمل مناسب. . ثم يعقب «النظام» على هذه القصة بقوله: «والرأى عندى أن يدفع إلى من يتوسّم فيهم حسن الاعتقاد وصدق الوداد بعمل جليل. وهذا ضابط لهم ويزيد من محبتهم للوزير. أمّا الذين فى قلوبهم مرض من أوهام فاسدة فإنهم فريقان: فريق لهم مقام عند السلطان والأعيان، ويجب على الوزير أن يتظاهر بإعزازهم وإكرامهم ويقلّدهم مختلف الأعمال وينقدها أمام السلطان ويحملهم تبعات أفعالهم بحيث لا يتعدى ذلك إلى هلاكهم لأن فاعله مذموم شرعاً وعقلاً، ومرتكبه ملوم فى الدنيا والآخرة»، ويأتى لذلك بقصة - ناصر بن ميكال - واتهام الخواجة - أحمد - بمقتله قرب - بكتاباد - فى طريقه إلى غزنين، وتأنيب الأديب - الحصري له بقوله: «إن الدنيا لايمكن أن تخلو من ذوى الكفاءات، فعليك أن تسعى للتغلب والتفوق عليهم، وبهذا الطريق يتعين استحقاقك للوزارة لا أن تخرى الدنيا من منافس لك بالفتك والقتل فيتعين مركزك بحكم الاضطرار». . ثم يعقب «النظام» على هذه الفكرة التى وجدت صدقاً حسناً فى نفسه بقوله: «إن الإيقاع بالآخرين إيقاع بالنفس فىنبغى ألا يجانب المرء محجّة الصواب ويقتنع بقبول التأويل وخداع الشيطان وتصديق المفترى فيهدر بذلك دم البرىء». . ثم ينتهى إلى قولة السياسى الحكيم ينصح بها ابنه وهى: «إن من يصادق الجميع يستولى على الجميع»^(١).

النقطة الرابعة: رعاية جانب الرعيّة:

ويوصيه أخيراً بإرشاد السلطان إلى طريق الرحمة كما كان الوزراء من قديم الزمان ليشمل الرعيّة من ذلك الرفاهية ويصيب الملك حسن السمعة. . ثمّ يورد له قصة طلب السلطان - ألب أرسلان - جمع الأموال من الناس بمناسبة

(١) الوصايا ص ٧٢.

غزو بلاد الروم وتضجرهم من ذلك وكيف كان الحديث يدور في مجلسه ذات يوم حول الموت والبلاء، وقال: «إنهما محتمان على المرء ولا يمكن دفعهما مطلقاً». فأجابه «النظام»: «يكون دفع ذلك بالعدل والرحمة». . . واستشهد له بقصة قرأها في تاريخ - ساسان - عن أحد ملوك العجم وبعد أن أتم عرضها على السلطان.. قال: «إن الأموال التي تهيأت من الرعايا لأجل الجيش أعيدوها ولا تتعرضوا لها». . . ثم يختم حديثه بقوله: «وغايتي من إيراد هذا الكلام أن تصل عواطف الوزراء العادلين وشفقتهم إلى جميع الرعايا والتابعين».

بهذا ينتهى «النظام» فى وصاياه لابنه - فخر الملك - وهى - كما شهدنا - صورة حية تنطق بما كان يجول فى ذهنه من خواطر سامية ويختلج فى أعماقه من أحاسيس عالية. وهى بما يلوح عليها من سمات وترتسم على صفحاتها من خطوط وألوان تبدو لنا صورة يحوطها وكتاب - السياسة - إطاراً واحد تلتقى فى داخله الخطط بالأفكار وتتجاوب فى جنباته العواطف بالتجارب. . . وهى بناءً على هذا وذاك من مؤلفات - النظام - موضوعاً وشكلاً وإن دخلتها ريشة الفنان - الناسخ - فعملت فى تقيمه وأضافت إلى تعبيره وربما أزدت فى حكاياته وحكمته.

وعمن يؤيدنا فيما وصلنا إليه ويذهب بنا إلى أبعد من ذلك أستاذنا - د/ يحيى الخشاب - فى بحثه الأخير عن هذا الكتاب، إذ استتج من حرارة الإيمان فى جملة وألفاظه، والصدق والصراحة فى تعبيره وقصصه ما يتفق وسيرة «النظام» كما وصفها المؤرخون، ومن استشهاده بالماضى القريب واختياره أمثلة من رجال العهد الغزنوى والبويهى استدلل على أن وصايا «نظام الملك» هو الكتاب الذى صدر عنه حقاً^(١).

وهذا ما حملنا على أن نتعقب آثار الوزير وترجم إلى العربية ما لم يترجم

(١) بحث القاه فى مؤتمر المشرقين الرابع عشر، المنعقد فى ميونخ فى سبتمبر سنة ١٩٥٧م باسم معهد الدراسات الإسلامية نشر فى مجلة المعهد ص ٢٣٤.

منها، ونعرض أمام الباحث خلاصة لأهم آرائه فى الكتابين لتكمل صورة دولته المنشودة، ولتبين وجه الصواب فى نسبتها للمؤلف، وربما كان يكفينى منها أن أذكر أسماءها، وأن أقصر جهدى على وصفها وتاريخ تأليفها، ولكنى رأيت أن فهمنا للوزير سيبقى ناقصاً وحكمنا عليه أو له سيكون خاطئاً ما لم نستعرض مذهبه السياسى وهو يسجله بقلمه حينما يدير دفة الحكم، كما عرضنا لمظاهر سلوكه الاجتماعى فى الحرب والسلام . . . وليس من شك بأن هذا النقص سيبقى ما لم نتمر فى عرض ما تبقى له من آثار، واستعراض ما تضمنتها من أفكار . . . ومن أهمها رسائله وأماليه فى الحديث.

* * *